ISSN 1111-5203 -EISSN2600-6596

مبدأ الهوية وإشكالية مفهوم الذاتية والغيرية

د.عالية زروقي
جامعة حسيبة بن بوعلي-الشلف

تاريخ الإرسال:30-09-2017 **تاريخ القبول:04-03-2018**
تاريخ النشر:02-12-2018

ملخّص:
تسعى هذه الدّراسة المعنونة بـ "مبدأ الهوية وإشكالية مفهوم الذاتية والغيرية" إلى استقصاء جملة من الإشكالات بحصرها والسعي لمعرفة كنهها، وإن كانت تساؤلات حول المفاهيم، من قبيل التساؤل عن المقصود بمبدأ الهوية، ما هي محدداته؟ وإسهاماته في تحديد طرفي الثنائية العتيدة الذاتية/الغيرية؟ أي من هو الأنا وما هي حدوده؟ ومن هو الآخر وما هي معايير تحديده؟ ما هي حدود العلاقة القائمة بين كل من الأنا والآخر على اعتبار مبدأ الهوية من المنظور الفلسفي والاجتماعي والنفسي؟
الكلمات المفتاحية: الذاتية؛ الغيرية، الأنا، الآخر، الهوية.

Abstract:
This study, entitled "The principle of identity and the problem of the concept of self and heterogeneity," seeks to investigate a number of problems by restricting them and seeking to understand them, although questions about concepts, such as the question of what is meant by the principle of identity, what are its determinants? What are his contributions to identifying the two extremes of self / heterogeneity? Who is the ego and what are its limits? Who is the other and what are the criteria for determining it? What are the limits of the relationship between the ego and the other on the basis of the principle of identity from a philosophical, social and psychological perspective?
key words: Self, heterosexual, ego, other, identity.

مقدّمة:
يعدّ البحث حول مبدأ الهوية من الأهمية بمكان على اعتباره محدّداً أساسيا ومهما لثنائية الذاتية والغيرية، لاسيما الأنا الجماعية الـ (نحن) التي لا يمكن تمييزها أو فصلها عن غيرها إلاّ من خلال محدّدات الهوية كمعايير متّفق عليها، تجتمع حولها الجماعة، وتختلف بها عن الآخرين، وتبعا لذلك لا يمكن تحديد الآخر إلاّ من خلال الأنا أوالـ (نحن)، كما أنّ البحث حول الآخر يشكّل<<جزءاً لا يتّجزأ من البحث في العلاقات بين الجماعات الإنسانية، فهذه الصورة تتشكل بفعل الاختلاف بين الجماعات في ميزات معيّنة والأهمية التي تعزوها كل جماعة لهذا الاختلاف>>[1]

ذلك الذي لا ينبني إلاّ من خلال الهوية و<<يتميّز مفهوم الهوية بطابع الشمولية>>[2]، ويتحدّد<<بناء على الدلالة اللغوية والفلسفية والسوسيولوجي والتاريخية لهذا المصطلح>>[3].

1-في الهوية ومحدّداتها:

والهوية كما وردت في "موسوعة لالاند الفلسفية" بما يقابلها في الفرنسية Identité وفي الانجليزية Identity، تعني<<ميزة فرد، أو كائن يمكن من هذا الوجه تشبيهه بفرد يقال عنه إنه متماه بالمعنى **ب** أو إنه "هو ذاته" في مختلف فترات وجوده "هوية الأنا "<<[4]، أما في"المعجم الفلسفي" فنجد العديد من المفاهيم، من بينها ما قدّمه الفارابي في قوله:<<هويّة الشيء، وعينيته وتشخّصه، وخصوصيته ووجوده المنفرد له كلٌّ واحدٌ، وقولنا إنّه إشارة إلى هويته، وخصوصيته، ووجوده المنفرد له الذي لا يقع فيه اشتراك >>[5]، وبالتالي فإنّ كلا المعنيين يشيران إلى أنّ هوية الشيء ما يميّزه عن غيره، و<<هوّيتي هي ما يكشف عن حقيقتي و يحدّد طبيعتي، بدلالة السّمات التي أعرّف بها عن نفسي، ومن هو على شاكلتي مثلما أنّ هويّة الآخر هي ما يكشف عن حقيقته ويحدّد طبيعته، بدلالة السّمات التي يعرّف بها عن نفسه، ومن هو على شاكلته>>[6]، فالهوية هي ما يسمح للذات من إدراك ذاتها و إدراك غيرها و<<هوية الإنسان هي مغايرته للكائنات الأخرى، إنه إنسان وعاقل، وهذا هو أول وأبسط مستوى توضع فيه الهوية الإنسانية>>[7]، والهوية ليست معطى ثابتا لا يتغير، وإنّما هي في حالة سيرورة شاملة، مع ما قد يبدو من ثبات ظاهري أحيانا[8]، كما أنّها ليست معطى نهائي بل هي شيء يتشكل[9]شيء يصير، وفقا لمعطيات ومرتكزات معيّنة.

ومادامت الهوية تعني الأفراد والجماعات وتختص بتمييزهم عن غيرهم، فإنه <<لا وجود لهوية خارج المجتمع والتاريخ، فالأمة وحدها تملك الهوية، سواء كانت جماعة (صغيرة أو كبيرة بشرط تماثل أفرادها وانصهارهم في الوجود المجتمعي الجماعي)، وأي فرد لا يستطيع أن يستقلّ عن الجماعة (الأمة) في هذا الإطار، أي أنه في حاجة إلى هوية تجمعه مع آخرين، لأنه ليس بإمكانه أن تكون له هوية وحده، كما أنه ليس بإمكان أيّة قوة أن تفرض هوية ما على مجموعة من الناس من دون اختيار حرّ من طرفهم>>[10]، وبالتالي فإنه لا يمكن للفرد أن يعيش دون هويّة كما أنها لا تُفرض عليه، وإنما هي اختيار وانتماء يشعر به الفرد تجاه جماعة معّينة، و<<الانتماء إلى جماعة محدّدة يعني ضمينا وجود جماعات أخرى،(...) فالفرد يعرّف نفسه بطريقة تضعه داخل حدود جماعية معيّنة، وهو بذلك يعلن من"لا يكون" أي إلى أيّة جماعة لا ينتمي>>[11]، من هنا فإنّ الهوية تنبني على المستوى الفردي، أي من شعور الشخص بالانتماء إلى الجماعة أو الإطار الإنساني الذي يشاركه منظومة القيم والمشاعر والاتجاهات، وكل من هو خارج حدود جماعية يعدّ آخراً بالنسبة للجماعة اللا(نحن)، وبالضرورة آخراً بالنسبة للفرد اللا(أنا).

والانتماء هو<< العلاقة المنطقية بين الفرد والصنف الذي هو أحد أفراده>>[12]، فإذا كانت الهوية هي ما يميّز الفرد عن غيره، فإن الانتماء هو تلك العلاقة التي يختار الفرد إقامتها مع جماعة معيّنة ويتحدّد الانتماء الاجتماعي للفرد وفقا لمعيارين أساسين متكاملين هما:<<العامل الثقافي الذاتي الذي يأخذ صورة الولاء لجماعة معيّنة أو عقيدة محدّدة، ثم العامل الموضوعي الذي يتمثل في معطيات الواقع الاجتماعي الذي يحيط بالفرد، أي الانتماء الفعلي للفرد أو الجماعة، فالولاء وهو الجانب الذاتي في مسألة الانتماء يعبّر عن أقصى حدود المشاركة الوجدانية والشعورية بين الفرد وجماعة الانتماء >>[13]. ويعدّ انتماء الفرد إلى جماعة معيّنة في إطار مجتمعي واحد أو أمة واحدة دليلا على احتواء الأمة الواحدة على جماعات متعدّدة، وإن كانت هذه الأمة تجمع بين أفرادها هوية واحدة مشتركة، فإنه قد يوجد اختلاف داخلي بينها بسبب ما يُطلق عليه الهويات الجزئية[14]، أو الهويات

الصغرى أو الهويات تحت قومية[15]، وهي إشارة إلى التوجهات السياسية والإيديولوجية، والطوائف الدينية وما يتفرّع عنها. والمناطق الجغرافية أو هوية (حضرية-ريفية) أو قبلية، وغيرها من العناصر التي قد تميّز أفراد المجتمع الواحد عن بعضهم في إطار جماعات وتشكيلات معينة[16]. وإلى جانب الانتماء الذي يختاره الفرد لجماعته هناك جملة من المحدّدات التي تميّز هويّة فرد عن غيره، والتي <<لا تتشكّل فقط من تلك العناصر والبيانات المتضمنة فيما يسميه أمين معلوف "بطاقة الهوية" بل إنها تمتدّ لتشتمل الدين والمذهب والطائفة والجنسية، واللغة والعائلة والجماعة الإثنية والجماعة القبلية، والمحيط الاجتماعي والمحيط السكني، الحي أو القرية أو البادية أو المدينة (و قد يشتمل ذلك أحيانا الفريق الرياضي أو الجماعة المهنية أو الجماعة السياسية)>>[17] غير أنّ ما يهمّ -في هذه الدراسة - هو تحديد الهوية الجماعية التي تتشكل من مجموع الانتماءات، الفئات والجماعات العرقية والدينية والسياسية والاجتماعية[18]، التي تندمج في النهاية في إطار هوية مشتركة واحدة تمثل مصالح الجماعة ككل.

ويعدّ الوعي بهذه العناصر المشكِّلة للهوية ضروري لتحديد الفواصل والفوارق بين الأنا والآخر من جهة، وللرّقي بها وتنميتها والمحافظة عليها من جهة أخرى، وهي تتراوح<<بين عناصر مادية فيزيائية تحمل قدرات اقتصادية، وتنظيمات مادية، وعناصر تاريخية تتضمن الأصول التاريخية المختلفة (الأسلاف القرابة، الأحداث التاريخية الهامة، العقائد، العادات والتقاليد و غيرها)، إضافة إلى عناصر ثقافية ونفسية تتضمن النظام الثقافي بما فيه من رموز ثقافية وأشكال تعبير أدبية وفنية خاصة، كذلك تضمّ إلى هذه العناصر مجموعة من الأسس الاجتماعية الخاصة، يضاف إليها نقاط التقاط ثقافية ومعايير جمعية تجمع العالم برمّنه>>[19] وتعدّ كل من اللغة الأم، والدين الرسمي، والأرض المشتركة أو الرقعة الجغرافية وغيرها من العناصر المهمة في تحديد هوية جماعة معيّنة وتدُخل العناصر السابقة أفراد المجتمعات في إطار دوائر <<تتداخل بعضها في بعض في أزمنة أو فترات الاسترخاء وتنفصل بعضها عن بعض في فترات الشدّة والصراع>>[20]. وتقوم الهوية على مبدأ الوحدة التي لا تتجزأ، لأن الهوية ذات، والذات لا تتعددّ بينما يمكن أن تكون لها صفات[21]، كما يمكن رصد أربع هويات رئيسية بدرجة متفاوتة من التأكيد لأعراض تحليلية، وهي[22]: هوية قومية عربية، هوية دينية إسلامية، هوية وطنية قطرية، هوية شخصية مهنية، حيث تتّخذ الأولى من العروبة محدّدا لها، في حين تعتمد الثانية الدين الإسلامي معيارا للفصل بينها وبين غيرها، ومادامت الأمة العربية مجموعة من الأقطار التي تتخذ من أوطان أو رقعات جغرافية محدّدات لها، فإن لها بذلك ما يميّزها عن غيرها، في حين تعدّ الهوية الشخصية المهنية ما يميّز الفرد عن غيره حتى لو كانوا من مجتمع واحد و أسرة واحدة.

1- في مفهوم الذاتية:

"الأنا" أو الذات مقابل "للآخر" ولا يحسن تعريف أحدهما دون الآخر، ومع ذلك نحاول فيما يلي تحديد مفهوم "الأنا" وإن كان يتعذّر ذلك بالتدقيق لكون هذا المفهوم <<متعدّد الدّلالات بتعدّد استخدام المنظّرين وتباين مشاربهم، فيرمز له مرّة بالأنا و أخرى بالذّات>>[23]، وإنْ كانت<<"أنا" تعني دائما الفرد أي الموضوع القائم بذاته، القاعدي، المرتبط بالروح، أو الحامل المادي للنشاط الذي يكتسب واقعية الحياة في التعامل فقط مع شخص آخر أي "أنت">>[24]، وهنا تبرز ذاتية الأنا، أي أثناء تصادمها مع اللاّ أنا أو مع الآخر، إذ أنّ << "أنا" تعني دائما إبراز نقيض الذات، شيء ما مختلف أو شخص ما أمام شخص أخر (أنا=اللاّ أنا) (أنا=الآخر) (أنا-أنت) (أنا-نحن) (أنا-مُلكي)

(أنا-أنا) وتكتسب معنى معيّن في سياق هذا المعنى،وكلما كانت الإيحائية أكثر تجريدية يتناقض فيها (أنا) كلما كان التحديد أقل فيه ذاته>>[25] و"للأنا" عموما في الفلسفة الحديثة عدّة معان:

المعنى النفسي والأخلاقي: حيث<<تشير كلمة "أنا" في الفلسفة التجريبية إلى الشعور الفردي الواقعي فهي إذن تطلق على موجود تُنسب إليه جميع الأحوال الشعورية>>[26]، أمّا في المعنى الوجودي :<<فتدلّ كلمة (أنا) على جوهر حقيقي ثابت يحمل الأعراض التي يتألف منها الشعور الواقعي، سواء كانت هذه الأعراض موجودة معاً أو متعاقبة، فهو إذن مفارق للإحساسات والعواطف والأفكار، لا يتبدل بتبدّلها ولا يتغيرّ بتغيرّها >>[27]. أما في المعنى المنطقي: << تدلّ كلمة (أنا) على المدرك من حيث أن وحدته وهويته شرطان ضروريان يتضمنّها تركيب المختلف الذي في الحدس، وارتباط التصوّرات التي في الذهن>>[28]، وبذلك فإن "أنا" ضمير لفظي، تجتمع فيه الأحاسيس والمشاعر والوعي والإدراك.

وكما كتب هيغل، فإن :<< الوعي بالذات بما هو هوية مخصوصة لا ينبني إلاّ ضمن تفاعل متين مع غيره، إنه لا يدرك نفسه إلاّ عبر الاعتراف به من لدن وعي آخر بالذات، ولكن للتخلص من هذه التبعية يقوم الوعي بالذات نفسه على أنه أوحد، ويقصى الآخر، إن كل واحد يروم إلغاء الآخر حتى يحصل على اليقين بالذات>>[29]، فالوعي أهم ما يميّز الذات عن غيرها، إن كانت هذه الذات<< ليست وحدة فارغة المحتوى، ولكن هناك عمليات واحتياجات نفسية تلعب دورها في تشكيل هذه الذات ويتكون مفهوم الذات من جميع المعلومات التي نعرفها عن أنفسنا وكما يمكن اعتبار الذات نمطا ظاهرا للإطار المعرفي الخاص بالفرد، وذلك الذي ينمو يتطوّر من خلال التجربة >>[30]، ذلك أنّ الفرد يتغيّر مع مرور الزمن، ولا يمكن إدراك الفرق بين الأنا وعينها إلاّ من خلال المقارنة، فإذا أردنا أن <<نتساءل إن كان شيء معين هو عينه[Same] أم لا، فإننا نرجع دوما إلى شيء وجد في زمن محدّد، ومكان محدّ ونحن متأكدون بأنه في تلك اللحظة كان هذا الشيء مساويا لنفسه (هو عينه مع ذاته [self the Same with it]>>[31]. و"الأنا" نوعان "أنا" فردية-و"أنا" جماعية على أنّ "الأنا" الجماعية تمثل "النحن"،<<وإنّ كلمة "نحن" ليست أحادية المعنى: فهي تعني صيغة الجمع من "الأنا"، بل إمّا أن تكون صيغة ضمنية Inclusive أنا + أنتم أو أنا + هم (الصيغة الخارجية Exclusive)>>[32]، وبهذا المعنى يكون للأنا نوعان فردية يقابلها الآخر الفردي أو النوعي، وجماعية يقابلها الآخر الجمعي. وتبعا لهذا الأساس فإن دراسة << "الأنا" في سياق العلاقات مع الأفراد الآخرين تحوي مجموعة كاملة من المعاني: إن "الأنا –الآخر" تفترض ليس فقط التفريق، بل التأثير المتبادل القوي، إن"الأنا-نحن" تعبّر عن الملكية المشاركة في شيء ما عام، إن (أنا – لي) تعبّر عن موقف الكلّ من الجزء أو الموضوع من الهدف أن (أنا-أنت) للنداء والمخاطبة(أنا –الآخر-أنا –أنا) تعني المخاطبة الذاتية والحوار الداخلي مع الذات إنّ "الأنا"إذا وجدت في غير سياق مفيد، فإنها ستكون وببساطة بدون معنى>>[33]، فالمعاني التي تحويها الأنا تختلف حسب منطلق الشخص الواعي المدرك لذاته ولما حوله.

ومن <<الشروط الأولية لبناء وحدة بسيكولوجية اجتماعية هو إنشاء (صورة الآخر): فبفضلها تتحقق نزعة الفرد إلى خلق انشطار بين (النحن) و(الهم)، وإلى تثمين الفروق القائمة بين هؤلاء وأولئك تلك هي النزعة التّواقة إلى إنشاء (نحن) ذاتية تقرن بكلّ ما هو آخر>>[34]. وللوقوف على كل تفاصيل مفهوم"الأنا "لا مناص من الوقوف على مقابلها، وهو مفهوم الآخر.

2- في مفهوم الغيرية (الأخر):

توجد العديد من الكلمات الدّالة على ما يقابل الأنا، كاللاأنا، الآخر، الهو، والغير...، وهي دوال تتقارب فيما بينها من جهة، وتختلف من جوانب أخرى، إذ أن<< لفظ "الغير" في علم النفس مقابل للفظ "أنا"، فكل ما كان موجودا خارج الذات المدركة أو مستقلا عنها كان غيرها، ونحن نطلق على الشيء الموجود خارج الأنا، اسم اللاّ أنا أو الآخر، فالأنا إذن هي الذات المفكرة، والموضوع الخارجي هو الآخر>>[35]، فكلّ ما هو ليس"أنا" هو "آخر" و<< "للآخر" حضور دائم عند الذات في جميع مراحل الحياة، وكما يؤكد علماء النفس، فإن حضور الآخر ليس شيئا عارضا، إلاّ أن الآخر في الوقت نفسه ليس شيئا ثابتا باستمرار، بل تتغيرّ خصائصه بتغير الظروف والمواقع>>[36]. على أنّ أهم عامل يساهم في تنوع الآخر هو الذات، <<مّما يعني أن كلّ وعي للذات هو في الوقت نفسه وعي بالآخر، أو بآخر واقعي أو متخيل لا انفكاك لواحدنا عنه فيما يفكر فيه أو يقوله أو يسعى إليه>>[37] ، وتختلف هوية الآخر باختلاف المنظور الذي تنظر منه الأنا، والوعي الذي تدركه،<<فالآخر ليس بالضرورة هو البعيد جغرافيا أو صاحب العداء التاريخي أو التنافس الدائم، إذ يمكن للذات أن تنقسم على نفسها، أو يحارب بعضها البعض الآخر>>[38] ، كما أن <<"الآخر" هو من ليس له، لا الأجداد أنفسهم ولا الآلهة نفسها، ولا حتى اللغة نفسها التي لنا >>[39]، وبالتالي فإن "الأنا" هي من ترسم حدود الآخر وتضع مواصفات شكله، << فكما يكون الآخر فردا يكون في أحيان أخرى جماعة، وكما يكون الآخر معروفا للذات، وقريبا منها، فإنه يكون في أحيان أخرى في أماكن بعيدة وحتى في أزمنة مختلفة>>[40]

وعلى العموم يمكن أن تدخل في إطار العلاقة بين الأنا وما يقابلها الثنائيتان التاليتان (أنا – آخر"اللاّأنا") و(أنا "نحن" –الآخر)، فيكون الآخر في الأولى فردا، ويكون في الثانية جماعة، ذلك أن الآخر "اللاّأنا" يتكوّن<<من أشياء طبيعية وأشخاص يدعون "أنت"، أضف إلى ذلك أن هناك تمييزا بين (أنت) حميمة (تنادي بالاسم الأول) ، وآخرين بعيدين (ينادون باللقب أو بالاسم الكامل)، وفي النهاية فإنّ أنا وأنت الحميمة تشكلان (نحن)، بينما يتشكل (هم) من حاصل (أنت) الغريب، وهكذا فإن من الواضح أن الآخر هو تعبير عام، يغطّي الحالات التي يعترف فيها بالاختلافات اللغوية، والثقافية الأخرى والتي تشكّل الأساس لهوية "نحن">>[41]، وبذلك نكون أمام نوعين من الآخر : الآخر الداخلي، والآخر الخارجي.

الآخر الداخلي: ويقصدبه<< كل آخر يشترك في المواطنة مع غيره، حيث يأتي الاختلاف من داخل ما يسمّى جماعة (النحن) نفسها، وتصبح الفكرة أو العقيدة أو الايدولوجيا وطنا جديد، أو مجتمعا يجمع المنتمين إلى الفكرة>>[42]، ذلك أن كلّ من يدخل في إطار الثنائية (أنا – آخر)، والتي يكون فيها الأنا فردا نوعيا، له وعي بمشاعره وأحاسيسه، وإدراك لما حوله، فالآخر يكون مقابلا له، أي يكون فرداً آخر له ما يميّزه عن الأنا ويخالفه، ليس بالضرورة في كل النواحي، وإنما تكفي ناحية واحدة لاعتباره آخراً. وبهذا يمكن تقسيم "الآخر" تبعا للجنس أو الدين،أو الايدولوجيا أو الجغرافيا ...كالتالي:

<< الآخر النوعي: ويقوم على التفرقة على أساس النوع ما بين رجل وامرأة /ذكر وأنثى.

- الآخر الديني: وتكون التفرقة على أساس الدين؛ مسلم– مسيحي– يهودي...إلى غير ذلك.
- الآخر داخل الدين الواحد:ويقصد به الطوائف والفرق المختلفة في كل دين
- الآخر السّلطوي: ويقصد به الانقسام ما بين حاكم ومحكوم.
-الآخر العنصري: حيث تقوم التفرقة هنا على أساس اللون: أبيض، أسود...
- والآخر من حيث الإقامة: ريفي، حضري>>[43]

وما هذا التعدّد في "الآخر" إلاّ لتعدّد الزوايا التي ينظر من خلالها "الأنا"، فهو لا يحتمل << دالاً واحداً في كلّ مرة، بل يتبدّل هذا الدّال عند كل واقعة تاريخية أو سياسية أو اجتماعية ...الخ تبعا للحال التي يتمّ منها التّطرق إلى الآخر>>[44]، فإذا انطلقنا من(أنا= نحن) فإن "الآخر" سيتغيّر بالضرورة، ذلك أنّ الذي كنت أعتبره آخراً في الثنائية (أنا= اللاّأنا) قد يكون ضامًّا صوته إلَيّ في إطار الثنائية (أنا= نحن) وبالتالي يخرج من دائرة الإنّية كلّ من << لا ينتمي لجماعة النّحن، وهو يشير لكلّ ما يقع خارج الذات الجماعية >>[45]، وهنا نكون أمام **الآخر الخارجي**، والذي تتشكل ّوفقاً له مجموعة من الثنائيات من منطلق اللغة القومية، التاريخ المشترك، أو الرقعة الجغرافية، الثقافة الجمعية، الإرث الحضاري، النظام السياسي، والتّصنيف العرقي، وكلّها عوامل ومحدّدات تتعلّق بالهوية القومية بالدرجة الأولى، وهي التي تفصل "الأنا" عن "الآخر" وتبرز دائرة التمايز والتقابل بينهما.<<وهكذا يقدّم الآخر نفسه في كلّ مرة في كينونة مختلفة تبعا للزاوية التي وضُع فيها صاحب الدّعوة>>[46]، أو الأنا الناظرة إلى هذا الآخر.

3- العلاقة بين "الأنا" و "الآخر":

تنبني ثنائية (الأنا والآخر) أساسا على المفارقة والاختلاف الموجود بين ذاتيين أو بين فردين، وقد <<أجمعت العرب على أنّ الاختلاف والمخالفة في اللغة، تعني أن ينهج كلّ شخص طريقا مغايراً للآخر في حاله أو في قوله، والخلاف أعمّ من الضدّ، لأن كل ضدّين مختلفان، وليس كل مختلفين ضدّان وتتّسع مقولة الاختلاف والخلاف لتشمل أحيانا المنازعة والجدل والجدال والمجادلة، وما إلى ذلك، لكن الاختلاف يبقي سنّة كونية لامناص منها>>[47]، بمعني أن الاختلاف الذي يجمع بين الأمور ويفرّقها ليس عيبا ولا نقصا، وإنما هو ممّا يغني ويفيد كلّ من الأنا و الآخر.

فالعلاقة بين "الأنا" و"الآخر" قائمة على الوعي والإدراك لكل منهما، إذ<<أن ّإدراك الآخر جزء من إدراك الذات، إدراكه كما هو، ليس كما نريد، وإن ّتصوّره وفهمه يطرح الآليات الصحيحة للتعامل معه>>[48]، فعلى الرغم من وجود الاختلافات العديدة بين الأنا والآخر إلاّ أنه لابدّ من إدراك الواحد منهما للآخر،<<فالفارق سواء أكان فارقا بين الجنسين أو فارقا في السلوك أو الشخصية أو فارقا عرقيا، أو ثقافيا يمكن أن يصبح وسطا تنشأ فيه روح عدائية، ولكنه يمكن أيضا أن يكون بيئة لخلق تفاهم وتعاطف متبادلين>>[49]، وتبعا لذلك فإن ّالعلاقة بين الذات والآخر علاقة <<في غاية التعقيد حيث يصبح الآخر شرطا لتحرّر الذات من ذاتية عمياء لا ترى إلاّ نفسها –وربّما لا تراها – ومن ثمّ تحمل نهاية لصيرورتها ...وفي الوقت نفسه فإن تحرّر الذات من حدودها، والخروج إلى الآخر، إنما يعني التجدّد بإدراك نقاط القوى لدى الآخر، التي تعني نقاط الضعف لدى الذات>>[50].

وبذلك فإن العلاقة بين الأنا والآخر بقدر ما هي علاقة شرطية تلازمية، هي علاقة جدلية من هنا لابدّ من التساؤل عن كيفية التعايش بين الأنا والآخر، في إطار جدلية العلاقة، والمفارقة الجامعة المانعة، <<فكيف يمكن للمرء أن يدير اختلافه عن سواه، وأن يمارس هويته بصورة عقلانية تواصلية؟>>[51]، إذ لا يمكن إلغاء الآخر أو رفضه، أو إقصائه من منطلق أن احترام الآخر والقبول به وإكرامه نابع من احترام الذات وإكرامها. إذ << أن ّقانون احترام الآخر والاعتراف بحقوقه قدر حتمي اعترفنا به أم لم نعترف، قبلنا به أم لم نقبل، اكتشفناه أم لم نكتشفه، صالحناه أم خاصمناه، ذلك أنّه قانون موجود في حركة الحياة وهو طبيعة الحركة الجوهرية للإنسان>>[52]، فاحترام الآخر والقبول به هو أول خطوات التعايش بين طرفي الثنائية.

وكخطوة ثانية تسعى جادّة نحو الكمال، لابدّ من <<حسن الاستماع للآخر الذي يجعلك تضع نفسك في موقع الطرف الآخر، فتكون بذلك قد حصلت على ما حصل عليه من فوائد توفير فرص التّصحيح، والتّطور والتّقدم على قدم المساواة >>[53]، إذ لا يكفي قبول الآخر واحترامه بل لابد من الاستماع إليه، بما يعبرّ عن نفسه، وبما يقدمه للمجتمع من تجديد وتنمية، تسهم في تطويره وتطوير الذات المستمعة إليه.

وكما يجب على الذّات أن تحسن الاستماع للآخر، فهي مجبرة على حسن الاستماع لنفسها ولأناها الخاصة، كي تتمكّن من محاورة الآخر، بمعرفة حدودها ومقوماتها، وبالتالي معرفة الذات لذاتها ولآخرها، وبهذا تتمكّن من المحاورة بأساليب راقية ناجمة عن الوعي والإدراك لا عن سوء الفهم والجهل والعداء.<<فبالحوار وحده نستطيع اكتشاف ذواتنا أولا، والتعرّف عليها جيداً، وتحديد أحجامنا وقدراتنا وإمكاناتنا، ومن ثمّ تطوير أنفسنا للّحاق بركب التحولات والتطورات>>[54]، وتجدر الإشارة إلى أنّ مفهوم الحوار لا يقتصر على الشَّبه أو للوصول إلى الأفكار نفسها والتطابق في المواقف، وإنما الحوار يكون مع الغير (الآخر) للتعلّم منه والتبادل معه والاغتناء به، لإتقان فنّ العيش معه، وبواسطته، بحيث يحدث التغييّر لكلينا، (يسهم كل منّا في تغيير الآخر) عبر ما يتمّ خلقه سويا من مناخات، ومساحات أو لغات ومجالات،<<ولذا لا يرمي الحوار إلى التطابق في وجهات النظر بين المختلفين، بقدر ما يرمي إلى خلق مناخ للتعايش أو وسط مفهومي، أو مجال عام أو قيمة تبادلية أو فسحة تنويرية، أو صيغة مركبة، أو لغة حية ومتحركة أو عقلية مفتوحة ومتجددة>>[55] وحوار الأنا والآخر على نطاقه الواسع يشمل حوار الحضارات الذي يستدعي<<استمرار التسامح والانفتاح واحترام الخصوصيات والاختلاف والتخفيف من التبشير العقائدي والأدلجة والمصلحية مما يضر كثيرا أو قليلا بوجود الآخر>>[56]. لاسيما الحركات الاستعمارية التي تسعى لاستعمار الآخر واحتوائه وإلغائه.

خاتمة:

وبذلك نصل إلى أن أهمية الحوار تتجلى من أهمية الإنسان نفسه،<<بوصفة ناطقا، يمارس علاقته بوجوده كفعل تواصلي عبر المحادثة مع الآخر، بهذا المعنى يشكل الحوار بُعداً من أبعاد الكينونة، خاصة إذا كان تعارفا أو تداولا معرفيا حول معاني الكينونة، والهوية والإنسان والحوار >>[57] فالعلاقة بين الأنا والآخر علاقة تقتضي الحذر في التعامل معها، لكونها تلازمية في الوجود، جدلية في المفهوم والبناء تقتضي حسن الإدراك والوعي، ومن ثم القبول والاحترام الذي يوجب حسن الاستماع وحسن التحاور من منطلق الإفادة والاستفادة، بالتسامح والانفتاح بعيدا عن الانعزال وسوء الفهم.

---

[1] عزيز حيدر، الآخر العربي والآخر الفلسطيني والآخر الإسرائيلي في نظر الفلسطينيين في إسرائيل، في الطاهر لبيب وآخرون، صورة الآخر: العربي ناظرا ومنظورا إليه، ص700.

[2] علي أسعد وطفة، إشكالية الهوية والانتماء في المجتمعات العربية المعاصرة، في رياض زكي قاسم، الهوية وقضاياها في المجتمع العربي المعاصر، مركز دراسات الوحدة العربية، بيروت - لبنان، ط1، نوفمبر2013، ص158.

[3] عفيف البوني، في الهوية القومية العربية، في رياض زكي قاسم ، الهوية وقضاياها في الوعي العربي المعاصر، ص23.

[4] أندريه لالاند، موسوعة لالاند الفلسفية، تعريب: خليل أحمد خليل، تعهده وأشرف عليه حصراً: أحمد عويدات، المجلد الأول A.G، منشورات عويدات، بيروت-باريس، ط1، 2001، ص607.

[5] جميل صليبا، المعجم الفلسفي بالألفاظ العربية والفرنسية والانجليزية و اللاتينية، دار الكتاب اللبناني، بيروت-لبنان، 1982،ج2، ص530 .

[6] علي عباس مراد، إشكالية الهوية في العراق.. الأصول والحلول، في رياض زكي قاسم، الهوية وقضاياها في الوعي العربي المعاصر ص296.

[7] فريدة النقاش، العرب وأسئلة الهوية، الهيئة المصرية العامة للكتاب، مصر، 2014، ص07.
[8] ينظر: المرجع نفسه، ص08.
[9] ينظر: محمد عابد الجابري، مسألة الهوية، العروبة والإسلام...والغرب، ص10.
[10] عفيف البوني، في الهوية القومية العربية، ص24.
[11] عزيز حيدر، دور المقاومة الثقافة في صياغة الهوية الجماعية، دراسة في الهوية الجماعية للعرب في إسرائيل،في رياض زكي قاسم ، الهوية وقضاياها في الوعي العربي المعاصر، ص401.
[12] جميل صليبا، المعجم الفلسفي، ج1، ص152.
[13] علي أسعد وطفة، إشكالية الهوية والانتماء في المجتمعات العربية المعاصرة، في رياض زكي قاسم ، الهوية وقضاياها في الوعي العربي المعاصر، ص155.
[14] ينظر: سالم لبيض، الهوية: الاسلام، العروبة، التونسة، في رياض زكي قاسم، الهوية وقضاياها في الوعي العربي المعاصر، ص352.
[15] فريدة النقاش، العرب وأسئلة الهوية، ص10.
[16] ينظر: باقر سلمان النجار، الفئات والجماعات: صراع الهوية والمواطنة في الخليج العربي، في رياض زكي قاسم، الهوية وقضاياها في الوعي العربي المعاصر، ص ص318، 319.
[17] باقر سلمان النجار، الفئات والجماعات: صراع الهوية والمواطنة في الخليج العربي، ص319.
[18] ينظر: علي أسعد وطفة، إشكالية الهوية والانتماء في المجتمعات العربية المعاصرة، ص159.
[19] رزان محمود إبراهيم، خطاب النهضة والتقدم في الرواية العربية المعاصرة، دار الشروق للنشر والتوزيع، عمان – الأردن، ط1، 2003 ، ص215.
[20] باقر سلمان النجار، الفئات والجماعات: صراع الهوية والمواطنة في الخليج العربي، ص 322.
[21] ينظر: عفيف البوني، في الهوية القومية العربية، ص36.
[22] ينظر: سالم ساري، الذات العربية المتضخمة: إدراك الذات المركز والآخر الجواني ، في الطاهر لبيب وآخرون، صورة الآخر: العربي ناظرا ومنظورا إليه، ص379.
[23] سلاف بوحلايس، صورة الأنا والآخر في شعر فكتور هيجو، موقع: www.manifest.univ-ouargla.dz تاريخ الزيارة:2014/10/15
[24] إيغوركون، البحث عن الذات-دراسة في الشخصية ووعي الذات، تر: غسان أدب نصر، منشورات دار معدّ للنشر والتوزيع، دمشق-سورية، 1992، ص ص10-11.
[25] إيغوركون، البحث عن الذات-دراسة في الشخصية ووعي الذات ، ص11.
[26] جميل صليبا، المعجم الفلسفي، الجزء الأول، دار الكتاب اللبناني، بيروت –لبنان،2 198 ، ص140.
[27] المرجع نفسه، ص140.
[28] المرجع نفسه، ص ص 140 ،141.
[29] روبار شارفان، الآخر في فرنسا المعاصرة: العربي كبش الفداء، في الطاهر لبيب وآخرون، صورة العربي ناظرا ومنظورا إليه، مركز دراسات الوحدة العربية، بيروت-لبنان، ط2، سبتمبر 2008، ص 593.
[30] همت بسيوني عبد العزيز، الشخصية المصرية وصورة الآخر، مصر العربية للنشر والتوزيع، ط1، 2013، ص63
[31] بول ريكور، الذات عينها كآخر، تر: جورج زيناتي، المنظمة العربية للترجمة، بيروت، ط1، تشرين الثاني(نوفمبر) 2005، ص269.
[32] إيغوركون، البحث عن الذات-دراسة في الشخصية ووعي الذات، ص7.
[33] المرجع نفسه، ص 11.
[34] آنّا أندرينكوفا ، صورة الآخر كخلفية لتصور الذات في المجتمع الروسي، في "الطاهر لبيب وآخرون، صورة الآخر: العربي ناظرا ومنظورا إليه، ص157.
[35] جميل صليبا، المعجم الفلسفي، ج2، ص131
[36] مصطفى عمر التّير، البعد الجغرافي وصورة الآخر- مقاربة امبيريقية، في الطاهر لبيب وآخرون، صورة الآخر: العربي ناظرا ومنظورا إليه ص419.
[37] علي حرب، العالم ومأزقه: منطق الصدام ولغة التداول، منشورات المركز الثقافي العربي، الدار البيضاء،2002 ،ص281.
[38] حيدر إبراهيم علي، صورة الآخر المختلف فكريا: سوسيولوجية الاختلاف والتعصيب، في الطاهر لبيب وآخرون، صورة الآخر: العربي ناظرا ومنظور إليه، ص111.
[39] جان فارّو، الآخر بما هو اختراع تاريخي، في الطاهر لبيب وآخرون، صورة الآخر: العربي ناظرا ومنظور إليه، ص51.
[40] مصطفى عمر التير، البعد الجغرافي وصورة الآخر - مقاربة امبيريقية، ص419

[41] فيلهو هارثي، مفهوم ومواريث "العدو" في ضوء عملية التوحيد والسياسات الأوروبية، في الطاهر لبيب وآخرون، صورة الآخر:العربي ناظرا ومنظور إليه، ص55

[42] همّت بسيوني عبد العزيز، الشخصية المصرية وصورة الآخر، ص67.

[43] المرجع نفسه، ص 68.

[44]دلال البرزي، الآخر: المفارقة الضرورية، في الطاهر لبيب وآخرون، صورة الآخر: العربي ناظرا ومنظورا إليه، ص101.

[45]همت بسيوني عبد العزيز، الشخصية المصرية وصورة الآخر، ص68.

[46] دلال البرزي، الآخر: المفارقة الضرورية، ص101.

[47]غريغوار منصور مرشو، سيد محمد صادق الحسيني، نحن والآخر، دار الفكر، دمشق-سورية، دار الفكر المعاصر، بيروت-لبنان، ط1، رجب 1422ه-سبتمبر2001م، ص93.

[48]إيهاب النجدي، صورة الغرب في الشعر العربي الحديث، مؤسسة جائزة عبد العزيز سعود البابطين للإبداع الشعري،الكويت، 2008، ص10

[49]همت بسيوني عبد العزيز، الشخصية المصرية وصورة الآخر، ص76

[50] سمير مرقش، الآخر. الحوار. المواطنة: مفاهيم وإشكاليات وخبرات مصرية وعالمية، مكتبة الشروق الدولية، القاهرة، ط1،1426ه-2005م، ص19.

[51] علي حرب، العالم ومأزقه: منطق الصدام ولغة التداول ، ص278.

[52] غريغوار منصور مرشو، سيد محمد صادق الحسيني، نحن والآخر، ص135

[53] غريغوار منصور مرشو، سيد محمد صادق الحسيني ، نحن والآخر، ص173

[54] المرجع نفسه ، ص ص120 ،121.

[55] علي حرب، العالم ومأزقه: منطق الصدام ولغة التداول، ص288.

[56] عبد الله أبو هيف، صورة الآخر والحوار بين الحضارات في الرواية العربية، مجلة جامعة دمشق، المجلد24، العدد الثالث والرابع، 2008، ص110.

[57]علي حرب، العالم ومأزقه: منطق الصدام ولغة التداول ، ص277.